٣٣ ــ كثير

كثير جدا ما تكلفت « السياسة » من العناء ، وما احتملت السياسة من الجهد ، وما أضاعت السياسة من الوقت لترد على مقال واحد لم يكن يستحق كل هذه العناية ، ولا يستوجب كل هذه الجهود. وكان يكفى إذا لم يكن بد من المضى فى المناقشة أن تكتب فيه فصلا أو بعض فصل ، وأن تفرغ لغيره من المسائل ذات الخطر التى يعنى بها الناس فى هذه الأيام ، والتى قد تفيد الكتابة فيها بعض الشىء . فأما أن تكتب السياسة فى هذا الموضوع اليسير فصلين ، وتشغل به مكانين ، وتتحدث به فى يوم واحد مرتين ، فنظنها توافقنا على أنه كثير ولا سيما إذا كان أحد الفصلين وهو الذى كتبه صديقى هيكل يكفى لإذاعة ما تريد السياسة(١) أن تذيع من المناقشة والجدال ، وكان الفصل الثانى الذى كتبه فيما يظهر كاتب لا يملك نفسه كما ينبغى للذين يريدون أن يخوضوا غمار الكتابة فى السياسة ويصفوا بنوع خاص آراء الأحرار الدستوريين الذين عرفناهم فى قديم الزمان ، لا يحبون همزا ولا غمزا ، ولا يؤثرون شتما ولا سبا ، موقوفا على الهمز واللمز ، وعلى التعريض السخيف والتلميح الذى كنت أحب أن أجلّ السياسة عنه . ومهما يكن من شىء فإنى أنصح صديقى هيكل أن يعلم كاتبه فن الكتابة السياسية على مذهب الأحرار الدستوريين خاصة ، وعلى مذهب المثقفين عامة ، فقد يظهر أنه حديث عهد بهذا الفن . وأحب أن أبدأ بملاحظتين اثنتين ، أمر بهما مرا سريعا ، لأنهما تتصلان بشخصى أكثر مما تتصلان بالموضوع الذى يختصم فيه .

---

(١) الكوكب ١ ــ ٦ ــ ١٩٣٣ .

(٢) كان الأحرار الدستوريون قد تحالفوا مع حزب الوفد ضد حكومة إسماعيل صدقى باشا ، ولما لوّح الإنجليز بفكرة قيام وزارة قومية كان من رأى محمد محمود باشا قبول هذه الفكرة وغض النظر عن عودة دستور ١٩٢٣ والحياة النيابية . ومن هنا بدأ الخلاف بين حزب الأحرار وحزب الوفد وانعكس هذا الخلاف على ما تنشره صحف الحزبين . فالسياسة تهاجم ويرد طه حسين فى كوكب الشرق .

فأما أولاهما فهى أن صديقى هيكلا يذكرنى بأنى قد استعديت القضاء على الأستاذين : عبد القادر حمزة ، وعبد الله حبيب ، وأحب أن أذكر الصديق بأن هذين الأستاذين لم يهاجمانى فى صحيفة هازلة ، وإنما هاجمانى فى صحيفة جادة ، كانت يومئذ من صحف الوفد . وأحب أن أذكر الصديق بأنى لم أمض فى تلك القضية إلى غايتها ، وإنما اعتذر إلىَّ الأستاذ عبد الله حبيب أمام المحكمة فعفوت ، لأنى كرهت وما زلت أكره أن ألجأ إلى القضاء فيما يكتب الناس عنى .

ولعل صديقى يستكشف قضية أخرى رفعتها على صحيفة هازلة قديما أو حديثا ، ولعه يستكشف قضية أخرى رفعتها على صحيفة جادة على كثرة ما أساءت به إلى صحف الهزل والجد من صحف الوفد ، ومن صحف الأحرار الدستوريين أحيانا !!

أما الملاحظة الثانية فهى أن صديقى هيكلا يلمح فى ظرف إلى مكانى من الطلاب ، فقد كنت لهم أستاذا ، وكانوا يحبوننى ويعجبون بى ، وهيكل يخاف أن يصدق هؤلاء الطلاب ما أقوله فى صحف الهزل . وكان الكاتب الثانى الذى لا أعرفه أو الذى أكاد أعرفه أدنى إلى الصراحة ، فذكر المعهد الأدبى الكبير الذى كنت أهيمن عليه ، وأنكر أن يجتمع لى رأى فى صحف الهزل وإشرافى على ذلك المعهد الأدبى الكبير . فأحب أن أهنىء « السياسة » بأنها قد استكشفت فى عيبا خطيرا من هذه العيوب التى تخفى على الناس حتى على أشدهم ذكاء ، وأعظمهم حظا من الفطنة ، فالآن وقد عرفت هذا العيب وكشفته وتبينت حظه من الخطر على الطلاب خاصة ، وعلى الشباب عامة ، يحسن بها وهى صحيفة الشجاعة فى الحق ! والدفاع عن الرأى ! أن تغير موقفها منى ، وأن تهنىء وزير التقاليد بهذه الخطة الحازمة التى اتخذها حين نقلنى من الجامعة ، وحال بينى وبين الطلاب والشباب ! وتهنىء الحكومة كلها بهذه الخطة الحازمة التى اتخذتها حين حالت بينى وبين أعمال الدولة بقرار من مجلس الوزراء !!

ومن الحق على « السياسة » ونحن اليوم فى شهر يونيو أن تسجل هذا العيب الذى استكشفته ، وأن تكتب فى مذكرة من المذكرات أنى خطر على الشباب

والطلاب ، فلا يجب بحال من الأحوال أن توصل بينهم وبينى الأسباب إذا نضج ما ينضجه الصيف من ثمرات !!

أما بعد فلندع شخصى تبلغ منه « السياسة » ما تشاء ولننتقل إلى الموضوع الذى نختصم فيه .

أحب أن يطمئن صديقى هيكل ، فهو إن كان يكره لى أن أدافع عن الصحف الهزلية لا لشىء إلا لأنها تدافع عن الوفد الذى أدافع أنا عنه ، فأنا أكره له أن يصور الأشياء تصويرا تنقصه الدقة إلى هذا الحد ، فأنا لم أدافع بعد عن الصحف الهازلة ، وإنما ذكرت ضيق النفوس وحرج الصدور ، وطلبت إلى الذين ينهضون بأعباء الجهاد السياسى أن يعرضوا عن الجاهلين ، وأن يمروا باللغو كراما كما توصى بذلك الفضيلة الخالصة ، وكما يوصى بذلك القرآن الكريم ، وكما فعل ذلك محمد ﷺ الذى يفصِّل هيكل حياته للناس تفصيلا فى هذه الأيام . وما أظن القرآن دافع عن جهل الجاهلين حين أمر بالإعراض عنه ، وما أظن القرآن دافع عن لغو اللاغين حين أوصى عباد الرحمن أن يمروا به كراما . وما أظن النبى أقر الجهل واللغو والأذى ، ودافع عنها حين احتملها وصبر عليها . وما أظن مخاصما صادقا فى الخصام يدعى إلى أن يحتمل الأذى ويصبر عليه فيقول لمن يدعوه إنك تدافع عن من يؤذينى وتغريه بالمضى فى الأذى ، وإن هذا غريب منك ، وإن هذا موقف لا أرضاه لك ، فأنا لم أزد حين دعوت ساستنا إلى سعة الصدر ، ورجاحة الحلم وإيثار العفو والأمر بالعرف على أن ذكرتهم بأن الله ــ عز وجل ــ يقول ﴿ ولمَن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾ وبأنه ــ عز وجل ــ يقول : ﴿ خذ العفو ، وأمر بالعُرفِ وأعرض عن الجاهلين ﴾ .

ليطمئن صديقى هيكل ، فإنى أرضى لنفسى هذا الموقف الذى وقفته كل الرضى ، وأحرص عليه كل الحرص ، وأريد ملحًّا فى الإرادة أن يفهمه الطلاب ويقبله الشباب ، وسأدعوهم إليه الآن وغدا وبعد غد . فمن كان حريصا على ألا تبلغهم دعوتى هذه إلى الحق والخير والفضيلة فليتخذ نفقا فى الأرض أو سلَّمًا فى الجو أو فليبتغ وسيلة من الوسائل الظاهرة أو الخفية ليحول بينى وبين هؤلاء الطلاب .

فقد كانت تبلغهم دعوتى فى الجامعة ، وهى الآن تبلغهم وأنا بعيد عن الجامعة ، وإنى لأرجو صادقا أن تقع هذه الدعوة من قلوبهم موقع الرضى فيعرضوا عن هزل الهازل ، ويصفحوا عن جهل الجاهل ، ويزهدوا فى استعداء القضاء .

وكان صديقى هيكل يظن حين كتب فصله الأول أنى قد اقتنعت به فسكت عنه ، فلما رآنى عدت إليه أخذنى عجب شديد ، تبارك الله ، ولكن صديقى هيكلا ينسى أن رده الأول قد ظهر يوم تحدث الناس بأن آثما أراد الشر بمنزل صاحب الدولة رئيس الأحرار الدستوريين ، فلم يطوع لى ذوقى المتواضع أن أصل حوارا مع السياسة فى هذا اليوم ، فأرجأت ذلك إلى غد ، ولولا هذا لما سكت عن مقال الصديق يوما ، فلم يكن يمكن السكوت عليه . ويعيد هيكل على أن الصحف الهازلة تذكر البنات والأبناء ، وتذكر الأزواج والزوجات ، فقد علمنا ذلك وسمعناه ، وقد علم هيكل أن كتاب الصحف الهازلة ، وأن بعض النواب والوزراء قد ذكروا ابنى وذكروا زوجتى فلم أبد لهم صفحة ، ولم أكشف لهم قناعا ، ولو قد سقتهم إلى القضاء لنالهم منه الجزاء .

أريد هيكل أن يصدقنى ، إنى أنكره اليوم أشد الإنكار ، وأرى فيه حقا للمغالطة أو تورطا فيها وكنت أعرفه قبل اليوم يكرهها ويتجنبها ، لماذا ؟ أإذا ذكرت السياسة بأن الجهاد السياسى ليس هو المناقشة البريئة الخالصة للحق ، الخالصة لقواعد الأدب والأخلاق فحسب ، وإنما الجهاد السياسى هو هذا ، وهو أشياء أخرى غير هذا ، فيها التعرض للأذى ، وفيها احتمال الظلم المنكر والجور الصارخ ، والاعتداء على الكرامات والانتهاك للحرمات ، والصبر على هذا كله ، والإغضاء عن هذا كله ، والانصراف عنه إلى ما يليق بالرجل الكريم ، دهش وأنكر ، وأخذه عجب لا ينقضى . وأى شىء فى هذا يثير الدهش ؟ وأى شىء فى هذا يدعو إلى الإنكار ؟ وأى شىء فى هذا يثير العجب القليل أو الكثير ؟ وهل فعل المصلحون غير هذا ؟ وهل فعل النبى الذى يكتب هيكل حياته غير هذا ؟ لقد كان يجاهد فيدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويجادل بالتى هى أحسن . وكان يؤذَى فيحتمل الأذى ، وكان يعتدَى

عليه فيصبر على العدوان . فكان جهاده إيجابيا ، وكان جهاده سلبيا ، وكان جهاده منتجا فيما أظن وفيما يظن هيكل . فليس من الحق إذن أن الجهاد السلبى لا خير فيه ، ولا سيما حين يكون هذا الجهاد ترفعا عن جهل الجاهل ، وإغضاء عن اعتداء المعتدين . وهل يعرف هيكل أن رؤساء الأحرار الدستوريين ، وأن حضرة صاحب الدولة رئيسهم الآن قد استعدوا القضاء قبل هذه الأيام على الصحف الهازلة لأنها كانت تعبث بهم ، وتعتدى عليهم . أفإن لاحظنا خروج الأحرار الدستوريين على تقاليدهم التى يجب أن تكون تقاليد الساسة حقا . أفإن عجبنا أن يخرج حضرة صاحب الدولة محمد باشا محمود عما عرف عنه من الأناة والرزانة ورجاحة الحلم ، أفإن كرهنا لأصدقائنا أن يخرجوا عن أطوار الزعماء السياسيين حقا ، أفإن حرصنا على أن يمر أصدقاؤنا باللغو كراما كما فعلوا قبل الآن ، كان هذا منا إساءة إليهم ، ودعوة لهم إلى قبول الضيم .

أليس يرى هيكل أنه يفكر فى هذه المرة تفكيرا أقل ما يوصف به أنه غريب ! ومن الذى يستطيع أن يزعم أنى دعوت الساسة إلى أن يكون جهادهم سلبيا ليس غير ؟ وإنى أنكرت عليهم أن يجاهدوا جهادا إيجابيا حين يكون هذا الجهاد مجديا ، وحين يكون لائقا بالرجل الكريم ؟ ومن الذى يزعم أنى أنهى الساسة عن أن يستعدوا القضاء على الوزارة ما وسعهم ذلك ؟ وأين الوزارة من الصحف الهازلة ؟ وهل نسى هيكل أنى أنا استعدى القضاء على الوزارة ؟

أليس من الحق لهيكل على نفسه أن يصلح آراءه هذه ، وأن يردها إلى القصد والصواب ؟

بقيت مسألة كنت أكره وما زلت أكره أن يطول فيها الجدال ، وهى مسألة الصلة بين الأحزاب والصحف الهازلة التى تؤيدها وتدعو لها ، فأظن هيكلا يوافقنى على أن التعمق فى هذه المسألة لا ينفع أحدا ، فليس من الحق فى شىء أن الأحرار الدستوريين أعرضوا دائما عن الصحف الهازلة ، أو كفوا عنها من تأييدهم وتشجيعهم حين كانت تناصرهم وتدعو لهم . وليس من الحق أنهم لم يسعوا إليها ولم يزوروا أصحابها كما زار رئيس الوفد من قضى عليهم أخيرا . وإذا كان رؤساؤهم لم يزوروا فكثيرا ما استزاروا وغيرهم قد زار . وإذا كان رؤساؤهم لم

يكتبوا فقد قالوا وقد فعلوا . وإنى لأرجو من هيكل أن يدع هذا الحديث ، لا لأنى أعجز عن تفصيله وتطويله ، ولكن لأنى أكره تفصيله وتطويله . وما زلت أرى أن البقيا خير وأجدى فإذا أبى هيكل إلا أن نفصل ونطيل فقد أكون عند ما يحب .

أما بعد فإنى ما زلت عندما رأيت حين بدأت الكتابة فى هذا الموضوع من أن المصريين خليقون أن يترفعوا عن الصغائر ، وينزهوا أنفسهم عن ضيق النفوس وحرج الصدور ، وأن يصبروا بنوع خاص لنقد الناقدين حتى حين يشتطون فيه ، وحين يتجاوزون فيه القصد ، فإن هذه طبيعة الحياة الديمقراطية ، وليس من المنطق فى شىء « ما دام أصدقاؤنا الأحرار الدستوريون يحبون المنطق » أن تطلب الديمقراطية لتذوق ثمارها الحلوة ليس غير ، فإن فى الديمقراطية عنبا وتينا ، وفيها كذلك صاب وعلقم . ومن أراد العنب والتين فليصبر على العلقم والصاب . ومن أراد الشهد فليصبر على إبر النحل . ومن أراد الورد فليصبر على الشوك . فإذا لم يكن بد من الإصلاح فليكن الإصلاح بالأناة والحلم ، لا بالعجلة والعنف . وليكن بالهدوء واللين ، وليكن بالدعوة الصالحة إلى الحكمة والموعظة الحسنة وقديما صبر سقراط على ارستوفان ، وقديما صبر محمد ﷺ على أبى جهل ، وقديما صبر الأحرار الدستوريون على روز اليوسف ، فما لهم يخرجون اليوم عن هذا الصبر ، ويغضبون حين يدعون إليه ؟